دور الطلبة الجزائريين في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني عامي1118هـ/1706-1707 م و1205هـ/1791 م (مقاربة تاريخية في تأصيل الحركة الطلابية الجزائرية)

أ. خليفة حماش
جامعة الأمير عبد القادر

يُشكل الطلبة في مجتمعنا الجزائري الحديث كما هم في كثير من المجتمعات الأخرى في العالم فئة مميزة لها تأثير واسع في الحياة الثقافية والاجتماعية والسياسية. ولذلك تعمل كل دولة على تأسيس الإطار الفكري المناسب الذي يستلهم منه طلبتها التوجه السليم الذي يجعلهم فئة منسجمة داخل المجتمع تعمل على دفع حركته الحضارية نحو الأمام. وتعتبر المساهمة في الدفاع عن الوطن وحمايته من أهم الأسس التي يُعتمد عليها في تأسيس ذلك الإطار وتأصيله تاريخيا كما هو الحال في بلادنا. وفي هذا الجانب فإننا في الجزائر قد دأبنا في ثقافتنا التاريخية بخصوص الحركة الطلابية الجزائرية على اعتبار أن عام 1956م الذي غادر فيه طلبتنا مقاعد الدراسة في مختلف الأطوار للمشاركة في حرب التحرير الوطنية ضد فرنسا. أول حدث تاريخي في عمر الحركة الطلابية الجزائرية. ورحنا نعد يوم 19 ماي الذي وقع فيه ذلك الحدث هو التاريخ الذي ولدت فيه تلك الحركة. وإذا حاول بعضنا أن يعمق جذورها التاريخية فإنه لا يذهب إلى أبعد من أوائل القرن العشرين للميلاد، وبالتحديد إلى سنة 1919 م حيث ظهر أول تنظيم طلابي شبابي بقيادة الأمير خالد باسم "الفتيان الجزائريون"، وكانت مطالبه تتمثل في المساواة في الحقوق بين الجزائريين والمعمرين (محمد الصادق مقراني، الجذور الوطنية للحرك الطلابية. جريدة النصر. 19 ماي 1999 م، ص 5). ولكن مقاومة الاستعمار الفرنسي سياسيا قبل ثورة التحرير ثم حمل

السلاح ضده في أثناء الثورة. إذا كانا عملين مهمين في تاريخ الحركة الطلابية الجزائرية المعاصرة، فإنهما في الواقع لا يؤصلان لتلك الحركة تأصيلا تاريخيا عميقا. بل هما يبعثان - عوض ذلك - على السؤال عن المصدر الفكري أو السياسي الذي استلهم منه طلبتنا آنذاك فكرة القيام بذلك العمل. فهل هي فكرة استلهموها من تاريخهم الوطني العريق، أم وفدت عليهم من مصدر خارجي ضمن الأفكار الفلسفية والسياسية الأخرى التي صار يموج بها فضاء العالم الحديث آنذاك. ويبدو أن موضوعنا هذا الذي يتعلق بدور الطلبة الجزائريين في تحرير مدينة وهران من الاحتلال الإسباني عامي 1118 هـ/1706 - 1707 م و 1205هـ/ 1791م يعد جوابا شافيا عن ذلك السؤال. إذ يؤصل للحركة الوطنية الجزائرية بتاريخ يعود الى نحو قرنين ونصف من الزمن قبل ثورة التحرير ضد الاستعمار الفرنسي.

وقد أعددنا هذا العمل من خلال مصدرين معاصرين آنذاك كان صاحباهما شاهدي عيان لأحداث الحرب ضد الإسبان في وهران. وهما مخطوطان محفوظان في المكتبة الوطنية الجزائرية. فالأول منهما عبارة عن أرجوزة تؤرخ لأخبار الفتح الأول في عام 1118هـ / 1706-1707م، لمؤلفها قاضي تلمسان آنذاك الشيخ محمد الحلفاوي، وقام بشرحها الشيخ عبد الرحمن الجامعي بطلب من المؤلف نفسه. ورقمه 2521. أما المخطوط الثاني فهو " الرحلة القمرية في السيرة المحمدية". وهو مصدر يؤرخ لأحداث الفتح الثاني في عام 1205هـ/1791م، ومؤلفه محمد المصطفى بن عبد الله المعروف بابن زُرقة الذي كان من موظفي باي الناحية الغربية محمد الكبير الذي تم على يديه الفتح. وكان ابن زرقة على اطلاع تام على أخبار الحرب ضد الإسبان منذ بدايتها إلى نهايتها وتحقيق النصر المبين. وذلك سواء من خلال مشاهداته الشخصية في ميدان القتال، أم من خلال الوثائق الرسمية التي كان يطلع عليها. وقد ضمن كتابه بعضها. ولذلك فإن ذلك الكتاب قد جاء أكثر تفصيلا لموضوعنا من الكتاب الأول. حتى أنه يكاد يكون كتابا متخصصا في تاريخ الحركة الطلابية الجزائرية في العهد العثماني. ورقمه 2597.

وسنحاول من خلال ذينك المصدرين أن نتتبع موضوعنا على أن نبرز تفاصيل عناصره في العناوين الفرعية الآتية وهي: تجنيد الطلبة. وعددهم. والعناية بهم. ومشاركتهم في القتال. ووقوف الشيوخ إلى جانبهم. وأخيرا تأسيس مقبرة للشهداء منهم.

1 ـ تجنيد الطلبة:

إن الإشارة إلى تجنيد الطلبة في الفتح الأول على يد باي الناحية الغربية محمد بكداش. قد جاءت لدى الشيخ محمد الحلفاوي في بيت واحد فقط في مقدمة الفصل الثاني من أرجوزته. فقال:

ثم نادى بالجهاد في الورى مقدما ما كان عندهم ورا

فسارع الناس له إذ طلبه لاسيما جماعة من طلبة (ورقة 29)

ولفظة (طلبه) المذكورة في الشطر الأول من البيت الثاني هي فعل ماض. والفاعل ضمير مستتر يعود على الباي محمد بكداش. والهاء المتصلة بالفعل هي ضمير في محل نصب مفعول به يعود على الجهاد الذي ذكره الشاعر في البيت السابق. أما لفظة (طلبة) الواردة في الشطر الثاني من البيت فهي جمع (طالب). ويقصد به " طالب العلم والقرآن " كما ذكر ذلك محمد الجامعي في شرح الأرجوزة (ورقة 31).

وفي الواقع فإن الشيخ الحلفاوي بأسلوبه الشعري والشيخ محمد الجامعي بأسلوب شرحه النثري المختصر لم يذكرا لنا الطريقة التي لم تم بها تجنيد الطلبة على يد محمد بكداش. أكان ذلك بإرادة من الباي وأمر خاص منه وجهه للطلبة بناء على فكرة خاصة به استلهمها من تجربة تاريخية كان على علم بها أو قاعدة شرعية كان يؤمن بها. أم كان بإرادة من الطلبة أنفسهم وشيوخهم استجابة لأمر الجهاد العام الذي وجهه الباي لسكان الناحية الغربية من الجزائر. ولكن في كلتا الحالتين فإن استجابة الطلبة لأمر الجهاد لم يكن يشوبها أي إكراه أو إغراء. كما أنها كانت استجابة واسعة شملت عددا كبيرا من الطلبة. وذلك ما يفهم من تعبير الشاعر نفسه باستخدام كلمة " لا سيما " التي تفيد معنى " بخاصة ". إذ أراد أن يقول بأن الطلبة كانت

سرعتهم إلى تلبية أمر الباي بخصوص الجهاد أكثر من غيرهم من الناس. ولذلك خصص لهم الباي حسبما ذكر شارح القصيدة، " محلة [(أي معسكرا)] مستقلة " عن باقي المحلات" (ورقة 31).

وإذا كان الشيخ محمد الحلفاوي والشيخ عبد الرحمن الجامعي قد سكتا في مخطوطهما عن وصف الطريقة التي تم بها تجنيد الطلبة على يد الباي محمد بكداش في الفتح الأول، فإن ابن زرقة في مخطوطه(ورقة 97) قد وضح بما فيه الكفاية طريقة تجنيدهم على يد الباي محمد الكبير في الفتح الثاني، فقال بأن أمر الجهاد قد وُجه إلى الطلبة بإرادة من الباي نفسه. وتولدت لديه تلك الإرادة من معرفة تاريخية بأخبارهم حول " إبلائهم في فتحها الأول" كما " شاع وذاع [...] على ألسنة الزمان ولما وقف عليه في تاريخ فتحها كقول الإمام أبي عبد الله الحلفاوي ". وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك فكرة أخرى لدى الباي تولدت عنها تلك الإرادة في تجنيد الطلبة وهي فكرة دينية، وتمثلت في الرغبة في أن يجندهم " تبركا بالعلم الشريف في فتح الأقفال المستصعبة"كما ذكر المؤرخ. ولبيان أهمية التبرك بالطلبة عند الباي فإن ابن زرقة ذكر بأنه لما وصله خبر وفاة أحد الطلبة بطريقة مؤلمة في هجوم قاموا به على الإسبان في أثناء الحصار الذي فرضه الباي على المدينة، فإن ذلك أحزنه كثيرا وجعله يرسل إليهم رسالة قال لهم فيها: " يكفيكم الرباط وقراءة القرآن والعلم [...] والمطلوب منكم الآن هو أن تلزموا محلتكم [(أي معسكركم)] ودرس كتبكم وقراءتكم، فإنا إنما قدمناكم تبركا بكم ليكون قدومنا لها [(أي لوهران)] بالله لا بأنفسنا [...] ولا زائد إلا حبكم والتماس صالح دعائكم" (ورقة 142).

وقد استجاب الطلبة لأمر الباي محمد الكبير من أجل جهاد الإسبان بشكل واسع، وأتوه من مناطق كثيرة من غربي الجزائر، ومنها معسكر ومازونة وغريس وترارة وندرومة وغيرها. وحول ذلك يقول ابن زرقة: " وانسابوا إليه من كل طريق وجاءوه من كل فج عميق، وأنفقوا في طريقهم إليه الطارق والتالد" (ورقة 98). وقال في موضع آخر: " ثم ترادفت أمداد الطلبة ووفودهم

وهطلت من كل شارق برودهم لما شاع من توجه الهمة لهم من سيدنا الأمير أبي الفتوحات" (ورقة 110).

كما تحدث ابن زرقة عن سير الطلبة من مواطن سكناهم إلى وهران، وذكر المناطق التي مروا بها والاستقبالات التي لاقوها من لدن السكان، فقال عنهم عند وصولهم إلى وادي الحمام قادمين إليه من معسكر: " هذا وبات الطلبة ليلة خروجهم بوادي الحمام فأكرمهم أهله بسمين اللحم وخالص الطعام، والبعض ذبح لهم الدجاج واستعذروا بأن الشتاء قطنة الهزال، وقبل الطلبة منهم ذلك ولم يقابلوهم بسوء مقال لأنهم تلقوهم بالفرح والسرور" (ورقة 100). وقال عنهم عند وصولهم إلى وادي تليلات وإقامتهم به: " ثم أن الطلبة أيدهم الله تعلى أقاموا بوادي تليلات أياما قلائل وهم في أثنائها يتضيفون فيمن حولهم من القبائل والنجوع المخزنية وخدمة الحضرة السلطانية " (ورقة 105).

2 ـ عدد الطلبة المجندين:

من المعلومات التاريخية النادرة التي أمدنا بها المخطوطان هي بعض الأعداد حول الطلبة الذين لبوا أمر الجهاد ضد الإسبان، وذلك في الفتح الأول كما في الفتح الثاني. وتلك الأعداد لا تفيدنا نحن في موضوعنا هذا فقط، بل تفيد الدارس الذي يبحث في حركة التعليم التي كانت سائدة بالجزائر في العهد العثماني أيضا. ونحن هنا إذا صعب علينا الحكم على تلك الأعداد بأنها كانت كبيرة أم متوسطة أم صغيرة، فإنه من غير شك لن يصعب علينا الحكم عليها بأنها كانت تدل على وجود حركة طلابية في الجزائر في العهد العثماني. فبخصوص الفتح الأول فإن الشيخ الجامعي في شرحه لأرجوزة الشيخ الحلفاوي أخبرنا بأن عددهم " كان ينيف تارة عن الألف وتارة ينقص عنه إلى السبعمائة " (ورقة 31). أما في الفتح الثاني فإن ابن زرقة على الرغم من إطالته في الحديث عن أخبار الطلبة في المشاركة في الفتح، إلا أنه لم يعطنا عددا جامعا عنهم كما فعل الجامعي، وإنما أعطانا أعدادا متفرقة بتفرق المدارس التي ينتمي إليها هؤلاء الطلبة

ومجموعهم ينيف عن ألف ومائة طالب، وهم طلبة المدرسة المحمدية التي أسسها الباي محمد الكبير نفسه في معسكر، " وعددهم ينيف عن الأربعمائة " وزعهم الباي على " خيمتين عظيمتين كل منهما تحمل ما ينيف علىالميين [(كذا)] "(ورقة 98)، ثم " طلبة غريس فيما ينيف على المائة" (ورقة 107)، وطلبة " الشيخ سيدي محمد بن أبي طالب المازوني [...] فيما ينيف على المايين" (ورقة 113)، وأخيرا طلبة " ترارة وندرومة وما وراءهما [...] في أربعمائة طالب" (ورقة 116).

3 ـ العناية بالطلبة المجندين:

كما يتضح من المخطوطين فإن العناية بالطلبة المجندين في المعسكرات كانت عناية فائقة تليق بمكانتهم في المجتمع باعتبارهم حملة للعلم الشريف، وقد كان ذلك في الفتح الأول كما كان في الفتح الثاني أيضا. وبدت تلك العناية في مجالات عديدة تمثلت في تخصيص خيم لهم منفصلة عن خيم غيرهم من المجندين، وتوفير الوسائل الضرورية لحياتهم داخل تلك الخيام. فيقول ابن زرقة (ورقة 98) بخصوص ذلك عند حديثه عن طلبة المدرسة المحمدية: " واستعد [الباي محمد الكبير] للطلبة أولا خيمتين عظيمتين كل منهما تحمل ما ينيف على المايين. وعين الطباخين والحطابين وجميع ما يحتاجه الطلبة المرابطون في المآل والحين كالأواني والزيت والسمن للتصبيح [(أي لإشعال المصابيح للإنارة ليلا)] والأكل، واستعد لهم حتى المراجل للوضوء والغسل". وقال عند حديثه عن الخيام التي هيئت لهم في وادي سيق بأنها كانت "خياما كبيرة ممتدة الأطناب واسعة الفناء تتراءى كأنجام الغاب أمر بضربها لهم هناك سيدنا الأمير" (ورقة 104). وقال عن الخدم الذين عينهم الباي لخدمتهم في تلك الخيام بالوادي المذكور بأنهم كانوا "حازمين قد كشفوا ساق الجد في فنون السفر وشمروا عن ساعد الحزم على مراد الطلبة في النهي والأمر" (ورقة104).

ولكي يقاوم الطلبة ظروف الطبيعة القاسية فإن الباي أرسل لهم "جملة من وافرة من جلود البقر" يستخدمونها " أيام البلل والمطر" (ورقة 132).

ولكي يبقى الباي محمد الكبير على اتصال مستمر بالطلبة في معسكراتهم ويعرف أخبارهم واحتياجاتهم فإنه أمرهم أن يعينوا من أجل ذلك رسولين منهم يأتيان إليه على فرسين عينهما لهما، وذلك ما حدث عندما توافد الطلبة إلى منطقة مسرقين قرب وهران " واحتاجوا هناك أواني الطبخ وقل زادهم ونفد السمن [...] كما احتاجوا من يصلح لهم المكاحل الفاسدة والزنادات الباردة " (ورقة 107)، " فرد عليهم الباي بأن أرسل القائد محيي الدين ليهيء لهم الجمال التي يرحلون عليها، ويحضر لهم عشرة أحمال قمحا وخمسة أحمال أخرى لطلبة غريس، بالإضافة إلى ثلاثين قنطارا من البشماط، وثلاث طناجر وبقراجين وعشرين طاسا من السمن واثنين من المختصين في اصلاح الأسلحة الفاسدة "(ورقة 108).

ولكي يرغب الباي محمد الكبير الطلبة في القدوم للجهاد فإنه بالإضافة إلى توفير شروط العيش المناسب لهم في المعسكر، فقد خصص لهم مبالغ مالية من خزينة الدولة أيضا، وأمر أن توزع عليهم بكيفية حددها هو بنفسه، كما أشار إلى ذلك ابن زرقة في مواضع متعددة من مخطوطه، ومن ذلك قوله: " وصار يرغبهم في الاجتماع ويوسع لهم في العطاء الباع ويعدهم بفيض الاحسان ورغد العيش المستلزم طيب الزمان وأن يجعل للمدرسين وأرباب القراءات والسلاكين خمسين ريالا لكل واحد وإن تكاثر عددهم وتزايد، ونوه بأن من كان أجيرا لتأديب الصبيان وتشغّله الرباط عنهم فعليه أجرته زيدا على مطلق الاحسان. ونبه أن لا يدرس أحد من بدو أوحضر، وليذهب كل للرباط يدرس وله مزيد الأجر" (ورقة 98). وقال في موضع آخر بأن الباي أرسل في 28 جمادى الأولى 1205 هـ كتابا إلى موظفي دولته قال لهم فيه: " فترونا بعثنا لكم سي عبد القادر بن البوري وبيده الدراهم أقسموها على الطلبة واجعلوا خمسة وعشرين طالبا في القسمة وكل قسمة اعطوها خمسة عشر ريالا بوجوهها مئوية شهرهم من غير القمح" (ورق 133). ثم حدد ابن زرقة مقدار الدراهم التي أحضرها الكاتب عبد القدر بن البوري المذكور في اليوم التالي ووزعها على الطلبة المرابطين بمسرقين قرب وهران، فقال بأنها ألف ريال (ورقة 134).

ولكيلا يخضع الطلبة للقوانين العسكرية الصارمة التي تفرض عليهم انضباطا مشددا في حياتهم اليومية وتحد من حريتهم في بعض حركاتهم ونشاطهم. فإن القيادة التي عينت لهم لم تكن من صفوف الجيش وإنما من الشيوخ الذين يتولون تدريسهم. وكان ذلك في الفتح الأول كما في الفتح الثاني. وإذا كان الشيخ عبد الرحمن الجامعي (ورقة 31) لم يذكر لنا في شرح أرجوزة الشيخ محمد الحلفاوي سوى الشيخ ابي عبد الله سيدي محمد التلمساني الذي استشهد في إحدى المعارك، فإن الشيخ محمد ابن زرقة في مؤلفه حول الفتح الثاني قد ذكر لنا عددا من هؤلاء الشيوخ. وكان منهم "الفقيهان العاملان العالمان المتبحران [...] العلامة أبو المعالي السيد محمد بن عبد الله الجلالي، وذو المكارم الأثيرة [...] قاضي الجماعة وقتئذ السيد الطاهر بن حواء " اللذان عينهما الباي محمد الكبير لقيادة طلبة المدرسة المحمدية. وجعل لهما الرجوع في الغث والسمين" (ورقة 98). ثم" الفقيه الصالح المدرس الناجح أبو المواهب [...] سيدي محمد بن أبي طالب المازوني" الذي كان شيخا لطلبة مازونة. وقد "جاء ماشيا من مازونة ودابته تقاد وراءه وهو يأمر الطلبة أن يتداولوا ركوبها [...] وكبر في قلبه أن يركب وطلبة العلم يمشون [...] إلى أن أشرفوا على وهران" (ورقة 114).

وفيما يتعلق بتسليح الطلبة فإنه إذا كان الشيخ محمد الحلفاوي والشيخ عبد الرحمن الجامعي قد سكتا عن ذلك الموضوع في الفتح الأول. فإن ابن زرقة قد أمدنا بمعلومات وافية حوله في الفتح الثاني. فتكلم عن توزيع المكاحل عليهم وقال بأن الباي أسند ذلك إلى شيوخهم مثلما فعل بخصوص طلبة مدرسته المحمدية الذين كانوا تحت إمرة الشيخين محمد بن عبد الله الجلالي والطاهر بن حواء. وكان أمر الباي للشيخين المذكورين بأن يوزعا المكاحل على الطلبة ويُثبتا ذلك في دفتر خاص يسجلان فيه أسماء الطلبة ونسبهم والأسلحة التي سلمت لهم (ورقة 98). وكان هدف الباي من ذلك هو تمكنه من مراقبة الطلبة المسلحين واسترجاع الأسلحة منهم بعد نهاية القتال ضد الإسبان. وكما يبدو فإن توزيع الأسلحة على الطلبة كانت تتم بسخاء كبير من جانب

الباي محمد الكبير. وذلك ما يفهم من حديث مؤرخنا عن طلبة مازونة الذين كان يقودهم شيخهم سيدي محمد بن أبي طالب المازوني. فقال عنهم بأن الباي " فرح بهم وانبسط ووسع لهم في مجلسه واغتبط وأحسن ظنهم وأفرغ عليهم البارود والسلاح والرصاص وأحجار الاقتراح وخرجوا من عنده مسرورين "(ورقة 113 ـ 114).

ولكي يهيء الباي محمد الكبير الطلبة للقتال فإنه أمرهم بالتدريب على استخدام السلاح في مدينة معسكر قبل قدومهم إلى وهران لمواجهة الإسبان. وفي ذلك يقول ابن زرقة " وقد كان سيدنا الأمير [...] لما قسم على الطلبة البارود بأم عسكر أمرهم بضربه في المناضلة تعليما لهم وترويحا للقلوب من الضجر [...] فتجدهم تارة يقرءون وتارة يتناضلون" (ورقة 104).

4 ـ مشاركة الطلبة في القتال:

لقد قدم لنا المخطوطان شهادة معبرة عن مشاركة الطلبة في المعارك التي دارت رحاها ضد الإسبان من أجل استرجاع وهران. وذلك في الفتح الأول كما في الفتح الثاني. ونستخلص من تلك الشهادة أن الطلبة كانوا في تلك المشاركة هم وشيوخهم تحركهم روح جهادية عالية. وكان بلاؤهم في المعارك حسنا. بحيث أن دورهم في ترجيح كفة النصر إلى جانب الجزائر ضدا إسبانيا لايمكن نفيه أو التقليل من أهميته بأي حال من الأحوال. ويبقى صفحة تاريخية ناصعة في تاريخ الحركة الطلابية في الجزائر. وإذا كان الشيخ محمد الحلفاوي في أرجوزته والشيخ عبد الرحمن الجامعي في الشرح الذي أنجزه لها حول الفتح الأول. قد اكتفيا بالإشارة إلى ذلك بصفة مجملة. فإن ابن زرقة في مؤلفه حول الفتح الثاني قد فصل في ذلك أيما تفصيل.

وكان كل ما ذكره الجامعي في شرح أرجوزة الشيخ الحلفاوي(ورقة 31) هو أنه كان لهم بلاء في الجهاد وصبر. و"كانت شوكتهم على الكفار أقطع من الرماح. ومداهم أنفذ من الصفاح. وسور جندهم يشد بعضه بعضا. وكل منهم يرى في موته قبل أخيه فرضا. يخوضون في طلب العدو المضايق. ويقتحمون من الحرب كل مازن".

أما ابن زرقة في مؤلفه حول الفتح الثاني فـراح يصف لنا المعارك التي خاضها الطلبة ضد الإسبان انطلاقا من معسكرهم في مسرغين، واحدة تلوة الأخرى، وذكر لنا تفاصيل كثيرة حول الاشتباكات التي حدثت بين الجانبين، بحيث يمكن من خلال ذلك استخلاص معلومات كثيرة حول ميل الطلبة للجهاد، ومستواهم في القتال، والأسلحة التي استخدموها في ذلك، ومكائد الإسبان ضدهم للقضاء عليهم، وطريقة دفن الشهداء منهم، وغير ذلك من الموضوعات التي تبرز دور الطلبة في تحرير وهران. وكان أول عمل عسكري يتعلق بالطلبة تحدث عنه مؤرخنا هو انتقالهم من مسرغين إلى وادي يفري الذي "تجتمع فيه طريق المرسى ووهران" حسب تعبير المؤلف، ويقصد بذلك أنه يشكل نقطة التقاء بين الطريقين المؤديين من جهة إلى المرسى الكبير، ومن جهة أخرى إلى وهران، وكلتا المدينتين كانتا بيد الإسبان. ومن ذلك الوادي "امتد صيتهم وعظمت على الكفار شوكتهم" (ورقة 110). وكانت بداية عملهم اكتشاف منبع الماء الذي كانت تتزود منه مدينة وهران بواسطة ساقية تمتد تحت الأرض، وكان ذلك الينبوع يجري تحت طبقة من الصخور، ولكي يقطع الطلبة الماء عن المدينة فقد فكروا في تفجيره، واتصلوا بالباي محمد الكبير ليرسل إليهم " البارود واللغم". فبعث لهم أحد المختصين في ذلك وهو "ابن ناصف قائد الجير، وكان له بهذا الشأن هندسة وتدبير، وبعث معه جملة وافرة من المحازم، لإنجاد الطلبة الحوازم [...] فجعلوا اللغم بعد اللغم والبارود يعمل في الأحجار عمل الزلزال بالكفار، حتى افضوا إلى غار في جوف الحجارة [...] فانقطع حسيس الماء الذي كان يسمع وعدم ذلك الصيت" (ورقة 113)، وفي ذلك دليل على غور الماء في أعماق الأرض وانقطاعه عن المدينة.

وبعد ذلك يتطرق ابن زرقة إلى خطر الجواسيس الذين كان الإسبان قد زرعوهم بين السكان في ضواحي وهران. وكيف قاموا بنقل خبر قيام الجزائريين باكتشاف ينبوع الماء وتفجيره بواسطة الألغام. فقال " وكان أعداء الله النصارى أخبرهم من لا يشك في نفاقه ولا يمارى من زنادقة الجواسيس ومنافقي هذه الأمة المغاطيس أن المسلمين كشفوا رأس الماء الذي به ملاك أمركم" (ورقة

114). وكان هؤلاء الجواسيس من القبائل الذين كان الجزائريون يسمونهم آنذاك المغاطيس بسبب تعميدهم على يد الاسبان واعتناقهم النصرانية. وقد رأى هؤلاء الجواسيس المعسكر الذي نزل فيه طلبة مازونة مع شيخهم محمد بن أبي طالب. فاتصلوا بالإسبان وحقّروا لهم شأنهم بأن أخبروهم بـ" أن أكثرهم صبيان ولم تكن لهم بالحروب تجربة. وقدروا في أنفسهم الخبيثة أنهم إن أدركوا من جِدهم حثيثة يستأصلون الطلبة عن آخرهم. فريقا يقتلون وفريقا يأسرون ويقطعونهم بأسرهم" (ورقة 114). وقد قرر الإسبان مهاجمة الطلبة في معسكرهم ليلا بمساعدة حلفائهم المغاطيس. ولما شعر الطلبة بالهجوم شرعوا يحلون صرر البارود ويعمرون مكاحلهم ويدافعون عن أنفسهم ضد المهاجمين. وكان منهم من صعب عليه فتح صرة البارود وتعمير بندقيته فراح يلتقط الحجارة من الأرض ويرمي بها على الأعداء. ولما رآهم المغاطيس على تلك الحال "حشدوا عليهم وقالوا لبعضهم بعضا اليوم يوم الطلبة. فإنهم عقدوا البارود في الصرر. وذلك دليل أن لم تتقدم لهم تجربة [في القتال]". ولكن " الله تعلى أحضر لطفه [...] فمدهم بنحو العشرة فرسان من مرابطي مسرقين وبنحو العشرين من طلبة ايفري" (ورقة 11). فتعاونوا جميعا في مقاتلة الإسبان والمغاطيس وردوهم عن المعسكر. وقد سلِم طلبة مازونة من خطر ذلك الهجوم المباغت سوى ثلاثة منهم أصيبوا بجروح فأرسل إليهم الباي محمد الكبير من يعالجهم (ورقة 114-115).

وبعد ذلك يصف لنا ابن زرقة معركة حدثت بين الطلبة والعدو في منطقة الأفوال في أوائل جمادى الأولى 1205هـ. وقد استشهد فيها عدد من طلبة المدرسة المحمدية ومعهم شيخهم الطاهر بن حواء. ووصل الطلبة في هجومهم على الإسبان في تلك المعركة حتى أسوار الأبراج التي يتحصنون خلفها. ويصف ابن زرقة وقائع تلك المعركة بقوله: " ذهب سرعان الناس فأشرفوا على مدينة وهران. فوجدوا زنادقة هذه الأمم المحمدية يحيطون بأعلى عين تيغريسين بالمنارة أخزاهم الله تعلى يسرحون غنيمتهم وأباليس المغاطيس محيطون بهم إحاطة السوار بالمعاصم

يحرسون ساداتهم النصارى أخزاهم الله جميعا في العاجلة والأخرى. فرجع أولئك السلف مسرعين وبالاستغاثة صارخين. وقالوا إن أعداء الله المائدة [...] فكبر ذلك في قلوب الطلبة وفزعوا كأنهم أسد الشرى فلما أشرف عليهم الأوائل رماهم الكفرة بالبنادق وولوا هم وكلابهم المغاطيس مدبرين. فركب الطلبة ظهورهم ورجعوا على أعقابهم وولوا أدبارهم وصريخ الطلبة ينادي يامحزنين إلى أين تفرون إلى أين [...] حتى دخلوا في فناء أبراجهم. ولم ييأس الطلبة من إزعاجهم فساروا إليهم طالبين وهم في الخنادق متسترين على أنهم [(أي الاسبان)] في نحو الثلاثة آلاف. زيادة على ما وراءهم من الأرداف من أهل الأبراج والعساكر التي لا يحصى عددها [...] والمصافف لهم من الطلبة نحو السبعين. وإن أحطت بحالة الشكوك نقول بضعا وتسعين [..] فلما انقضى من أيدي المجاهدين البارود وصار من فرغت كنانته يقول هل عندك قرطاس منه فأعود [...] ولما علم الكفرة ضعف الطلبة من مصافهم وكانوا في رجوعهم آمنين اغترارا بما رأوا من سطوتهم على الكافرين. وكان التعارك بالموضع المسمى بالأفوال [...] فوقف الكفرة حتى غلب الطلبة [...] فأجلبوا عليهم بخيلهم ورجلهم وركبوا ظهورهم والطلبة يشعرون بذلك [...] فلما أشرفوا عليهم وشقوهم بالبنادق وقذفهم أهل الأبراج بالصواعق فقتلوا منهم ثلاثة وجرحوا نحو الاثني عشر ومنهم العلامة النحرير [...] الفقيه [...] قاضي أم عسكر وقتئذ السيد الطاهر بن حوى [(كذا)]. فبات تلك الليلة ودمه ينفح مسكا وهو يتطهر به تبركا [...] ومات رحمه الله تعلى في الليلة الثانية وهي ليلة الخميس ثانية أيام جمادى الأول سنة ما ذكر [(وهي سنة 1205هـ)]" (ورقة 122 ـ 124).

وقد أدرك الإسبان خطر ذلك الهجوم الذي قام به الطلبة ضدهم في أبراجهم. ومن ثمة قاموا بقطع الكروم والأشجار التي تحيط بالأبراج. كما أفسدوا المراصد التي بنوها من قبل من أجل مراقبة حركات الجزائريين. وذلك كله حتى لا يستغلها المجاهدون الجزائريون ومنهم الطلبة في

إقامة الكمائن لهم، وتبقى الأراضي المحيطة بالأبراج مكشوفة أمامهم بستطيعون من خلالها مراقبة كل هجوم يشن ضدهم (ورقة 132).

وكانت آخر معركة خاضها الطلبة ضد الإسبان سجلها لنا ابن زرقة في جزئه الأول من الرحلة القمرية، هي معركة الرفافيد التي دارت رحاها في أوائل جمادى الثانية من سنة 1205هـ. وفيها اصطدم الطلبة بأسلحة مرعبة من جانب الإسبان، تمثلت في استخدام الكور (أي قذائف المدافع) والبنادق والبونبات (وهي القنابل) التي ترمى بواسطة المهارس (وهي مدافع الهاون)، وتنفجر عند ارتطامها بهدفها محدثة دويا قويا مفزعا " تحاكي [بها] رجوع [(أي صدى)] الصواعق" حسب تعبير المؤلف (ورقة 140). وفي مقابل تلك الأسلحة الفتاكة التي استخدمها العدو، فإن الطلبة لم يكونوا يملكون سوى " المكاحل الطوال وبعض الأصاليت [(وهي السكاكين)]، ولم تكن لهم حينئذ عدة من البارود والرصاص المعهود" (ورقة 140). ولما فوجئ الطلبة باستخدام العدو تلك الأسلحة الفتاكة ضدهم، فإنهم لم يجدوا ما يردون به عليه سوى أنهم " شدوا ظهور إخوانهم وهم يعضون على أكفهم وبنانهم تحسرا على قلة البارود، ويستغيثون بالمالك المعبود، ويدعون على من منعهم ذلك" (الورقة نفسها). ويقول ابن زرقة الذي كان شاهد عيان لأحداث تلك المعركة بأنه رأى منهم من " يحلف أشد الإيمان أنه لا يملك عمارة مكحلة مرة، ولا يجد ما يلوي به الكرة، فيجلس مبينا لغدره مسلما لحكم الله وأمره ".ولكن مع ذلك فإن الطلبة واجهوا العدو متراصين حتى أنهم " إذا رأى [أحدهم] نار الحرب قد اشتعل لضاها ودارت على قطبها رحاها، ثار تجاه إخوانه الطلبة كالبازي حتى يستره نفع تلك المغازي، فإذا قيل له إلى أين وقد كنت آليت كل يمين [بأنك لا تملك عمارة مكحلة من البارود]، فيقول أموت مع إخواني ولا يموتون دوني " (ورقة 140). وكانت نتيجة المعركة استشهاد اثنين وجرح نحو الثمانية من الطلبة (ورقة 141).

وهنا يروي لنا ابن زرقة حادثة مأساوية ليس بالنسبة للطالب الجريح الذي تتعلق به تلك الحادثة فقط. وإنما بالنسبة للمسلمين عامة آنذاك من الجانب الحضاري. ذلك أن ابن زرقة قد بين لنا من خلالها مستوى التدهور المهول الذي بلغه واحد من أهم العلوم التي تبني عليها الأمم حضاراتها وكان المسلمون في عهد من العهود أسيادا للبشرية فيه، وهو علم الطب. وتلك الحادثة هي شبيهة من بعض وجوهها بالحادثة التي رواها أسامة بن منقذ (494-584هـ/1099-1188م) في مؤلفه " الاعتبار" الذي سجل فيه أحداث الحروب الصليبية، عن الطبيب ثابت بن قرة الذي أرسله آنذاك أمير شيزر بسوريا إلى أمير المنيطرة الصليبي بلبنان لمداواة بعض مرضاه. وبين من خلالها المستوى المهول الذي كان عليه ذلك العلم عند الأوروبيين في العصر الوسيط. ونقل عنه تلك الرواية بعض المؤرخين ومنهم الأوروبيون (راجع الملحق). فقال ابن زرقة بأنه كان ضمن الطلبة الذين جرحوا في المعركة المذكورة " طالب من جهة صرمة (برفع الصاد) يوسم بسي بوتمرة، قد أصابته بندقة [(أي رصاصة)] في رأسه. فشقت اللحم وثبتت في شقوف العظم ولم يحضر وقتئذ طبيب ماهر. فأتاه بعض الحدادين ممن لم تصحبه عناية المالك القاهر. فلما رأى تلك البندقة ثابتة في خلال عظم رأسه أشار عليهم بنزعها ليستريح من ضر ذلك وبأسه. وزعم أنه أبو بجرتها وأخو عذرتها، ثم ذهب وأتى ببريمة. فجعلها في فم الكلبتين وأنشأ يبرم تلك الرصاصة حتى ثبتت فيها وصار يجذب بقوة اليمين وآخر قبالته يجذب رأس المصاب إليه باليدين حتى انكسرت البريمة. فذهب وصنعها، وجاء يسعى إليه كأنما غريمه. ثم برأها في الرصاصة حتى إذا ثبت كل الثبوت جذبها بقوة، فنزعها مع ما اتصل بها من العظم وتركه يموت. تقسم بأنشد اليمين أنه قطع منه عرق الوتين، فلم يتكلم من حينه بعد أن كان يقبل ويدبر حتى استشهد رحمه الله تعلى [...] وقد كنت سألت عنه رحمه الله عشية الخميس فقيل لي إنه يخرج لقضاء الحاجة كالعادة. وبالغد نعيت موته وقد التحق بذوي السعادة " (ورقة 141).

وقد تأسف مؤرخنا على ذلك الحادث المحزن تأسفا شديدا، واعتبره تجاوزا لحدود الله وظلما من جانب ذلك الحداد الجاهل، وعبر عن ذلك بقوله مخاطبا القارئ: " فانظر أيدك الله ما أجسر هذا الظلوم وما أشد اعتداءه على حدود الحي القيوم، إذ الطب علم من العلوم، بل قالوا علم الأبدان مقدم على علم الأديان " (الورقة نفسها).

5- وقوف الشيوخ إلى جانب طلبتهم في القتال:

يعد الطلبة وشيوخهم عنصرين متلازمين لا ينفصلان، فحيثما وجد أحدهما وجد الآخر معه. وليس ذلك في مجالس التعليم فقط بل في ميادين أخرى عديدة شبيهة بها، ومنها ميدان القتال الذي نحن بصدد الحديث عنه. ذلك أن الطلبة بطبيعة سنهم التي غالبا ما تكون صغيرة. وتربيتهم التي يستمدونها من الأفكار المجردة والقدوة المثالية، وكذلك حياتهم الاجتماعية المميزة التي تجعلهم فئة منعزلة عن فئات المجتمع الأخرى. أقول نظرا إلى تلك الاعتبارات واعتبارات أخرى غيرها، فإنه لا يمكن للطلبة أن يطيعوا أوامر تأتيهم من غير شيوخهم. ولاتحركهم أو تغذي نشاطهم قدوة غير قدوتهم، ولا أحد قادر على جمعهم سواهم. ومن ثمة فلا يمكن أن نأن أ تصور وقوع حركة طلابية بمعزل عن مشاركة الشيوخ فيها، وكان ذلك في الماضي كما هو في الحاضر أيضا. ومن أجل بيان ذلك رأينا أن نتناول هذا العنصر الخاص بوقوف الشيوخ إلى جانب طلبتهم في المعارك من أجل فتح وهران، سواء في المرة الأولى أم في الثانية كما بينه المخطوطان. فبخصوص الفتح الأول فإن عبد الرحمن الجامعي في شرح أرجوزة الشيخ محمد الحلفاوي قد أشار صراحة إلى تعيين قادة للطلبة من الأسرة الطلابية وليس من خارجها. فقال " وكانت لهم منهم رؤساء يرجع أمرهمأ أمرهم إليهم ويعتمدون في المضائق عليهم" (ورقة 31). ولكن أسلوب الاختصار الذي اتبعه الجامعي في توضيح الأحداث التاريخية التي تضمنتها الأرجوزة جعله لا يشير سوى إلى رئيس واحد فقط من هؤلاء الرؤساء. وكانت إشارته تلك على سبيل المثال فقط وليس الحصر، فقال بعد ذلك مباشرة: " منهم الفقيه العالم الأستاذ السالك

الخير الناسك الحاج بيت الله المجاهد في سبيل الله أبو عبد الله سيدي محمد الموفق التلمساني نسبا المالكي مذهبا رحمه الله تعلى ورضي عنه " (الورقة نفسها). وبالنظر إلى الصفات التي نعت بها الشيخ الجامعي ذلك الرجل القائد، يتبين لنا أنه لم يكن طالبا وإنما كان شيخا عالما. وكما يفهم من كلمة " منهم " التي استهل بها حديثه عن الشيخ، يتبين أنه كان واحدا من جملة شيوخ آخرين يمكن للبحث العلمي أن يكشف عنهم ويحدد أسماءهم. ومن غير شك فإن إشارة الجامعي تلك لذلك الشيخ لم تأت من أجل توضيح معانى الأرجوزة وتوكيد محتواها التاريخي فقط، وإنما من أجل تحقيق هدف آخر يتعلق بالشيخ ذاته، وهو الإشادة بمكانته العلمية من جهة. ومن جهة أخرى بقوة بلائه في جهاد الإسبان واندفاعه الشديد لقتالهم من أجل تحرير وهران من سيطرة الكفر وإعادتها إلى الإسلام، حتى قتل في ميدان المعركة وكتبه الله من الصديقين والشهداء وصار يعد من رجاله الأخيار، وحول ذلك يقول الجامعي:

"وكان أكثرَ الناس حرصا على الظفر بالشهادة وللفوز بالسعادة، يبحث عنها في كمائن العدو ويرصدها في الحركة والهدوء، ويحرض الناس على طلبها ويحذرهم فوات زمانها، حتى أدرك منها المنى في وقت سعيد بين البرج الأحمر والجديد. وكان ذلك اليوم عظيما على من حضره، عفا الله فيه عن ذنبهم وغفره [...] وكان ذلك ضحوة يوم الثلاثاء ثامن شهر الله المعظم رمضان عام ثمانية عشر ومائة وألف. وحمل إلى تلمسان ودفن خارج باب الجياد أحد أبوابها قريبا من تربة الإمام السنوسي، وحضر جنازته الجم الغفير من الخامل والشهير، واتخذ قبره مزارة تقصد في قضاء الحوائج وتفريج الكرب" (ورقة 31).

وبالإضافة إلى الشيخ سيدي محمد الموفق التلمساني فقد ذكر لنا الجامعي شيخا آخر شارك في فتح وهران الأول إلى جانب الطلبة ورجال العلم، وهو " الأديب الحسيب الكاتب النجيب أبو عبد الله السيد محمد بن جابوا التلمساني"، وقال بأنه كان ممن حضر استشهاد الشيخ سيدي محمد

الموفق المذكور (الورقة نفسها). ولكن الجامعي لم يذكر إذا كان ذلك الشيخ قد شارك في قتال الإسبان باعتباره قائدا للطلبة أم مجرد مقاتل بسيط مثلهم.

أما في الفتح الثاني فإن ابن زرقة قد ذكر أسماء عدة شيوخ قادوا الطلبة في القتال، وهم " الفقيهان العاملان العالمان المتبحران [...] العلامة أبو المعالي السيد محمد بن عبد الله الجلالي، وذو المكارم الأثيرة [...] قاضي الجماعة وقتئذ السيد الطاهر بن حواء" اللذان عينهما الباي محمد الكبير على رأس طلبة المدرسة المحمدية (ورقة98)، والشيخ سيدي محمد بن أبي طالب المازوني الذي قَدِم على رأس طلبة مازونة (ورقة 114)، ثم " الكاتب الأديب الفقيه السيد أحمد بن هطال" (ورقة 115) الذي كان يعمل كاتبا لدى الباي، و"الأستاذ القارئ السيد محمد أبو يوسف" الذي كان يسكن بناحية بني عامر وكان له دور في تجنيد الطلبة بنواحي ترارة وندرومة وما وراءهما حتى اجتمع منهم أربعمائة طالب (ورقة 116). وكان ممن استشهد من هؤلاء الشيوخ الشيخ الطاهر بن حواء الذي جرح في معركة الأفوال التي سبق ذكرها، وذلك بعد أن أصيب بجرح خطير بات ليلة كاملة ينزف من جرائه، ويقول ابن زرقة إن دمه كان حينذاك " ينفح مسكا وهو يتطهر به تبركا"، وكانت وفاته في الليلة الثانية، وهي ليلة الخميس ثاني أيام جمادى الأول سنة 1205هـ (ورقة 124).

- تأسيس مقبرة الشهداء:

كانت مسألة دفن القتلى من الطلبة المجاهدين إحدى المسائل التي طرحت بحدة في أثناء الفتح الثاني لوهران، ذلك أن بعض الطلبة كانوا قد قرروا أن ينقلوا رفاة زملائهم المتوفين إلى مواطن سكناهم لدفنهم بها. ولكن الباي محمد الكبير لما بلغه ذلك فقد رفض وأرسل إلى الطلبة يأمرهم باتباع سنة الرسول صلى الله عليه وسلم في دفن قتلى غزواته، إذ كان يدفنهم في أماكن استشهادهم حتى وإن كانت قريبة من مواطن سكناهم. وأرسل إليهم كتابا شرح لهم فيه ذلك وبين في الوقت ذاته مدى معرفته بالتاريخ الإسلامي والسنة النبوية. فقال: " كيف بكم تعلمون سنة النبي صلى

الله عليه وسلم ولا تعملون بها، وفائدة العلم العمل. أمَا تدرون أن سيدنا صلى الله عليه وسلم دفن شهداء "أحد" بمصارعهم ولم ينقلهم للمدينة المشرفة مع أنها أقرب العمارات إليهم، وأنتم تتلون الكتاب العزيز على الألسنة. لقد كان في رسول الله أسوة حسنة. فالمطلوب منكم الآن هو أن تدفنوا من مات هنالك، وتكون مقبرة الشهداء من طلبة العلم مشهورة بذلك مقصودة للتبرك والزيارة والنسك" (ابن زرقة، ورقة 143).

وأخيرا أرجو بأنني قد مهدت بهذا العمل إلى إعادة بناء تاريخ الحركة الطلابية في الجزائر، وبينت أصالة العمل الطلابي في بلادنا باعتباره جزءا من التاريخ العام للمجتمع الجزائري على امتداد عصوره، خصوصا أنه كان عملا مشتركا بين الطلبة من جهة، واساتذتهم من جهة ثانية، والسلطة الحاكمة من جهة ثالثة، والمجتمع الذي ينتمون أليه من جهة رابعة. واتمنى أن تدخل اليوم أسماء الطلبة المستشهدين في الجهاد ضد الإسبان من أجل تحرير وهران وعلى رأسهم الطالب سي بوتمرة والشيخ الطاهر بن حواء، في ذاكرتنا التاريخية بأن يعطى لهم اعتبار تاريخي ويعدوا من رموز الجهاد من أجل تحرير الوطن كما هو حال الرموز الآخرين الذين قاوموا الاحتلال الفرنسي.

ملحق:

يقول ابن منقذ: " ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة [الصليبي في لبناذ] كتب إلى عمِّي [أمير شيزر (والي حماة بسوريا) يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه، فأرسل طبيبا نصرانيا يقال له ثابت [بن قرة]، فما غاب عشرة أيام حتى عاد، فقلنا له: ما أسرع ما داويت المرضى، قال: أحضروا عندي فارسا قد طلعت في رجله دملة [(بمعنى تقيح) وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت، وحميت المرأة ورطبت مزاجها، فجاءهم طبيب إفرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيئا يداويهم، وقال للفارس: أيما أحب إليك، تعيش برِجل واحدة أو تموت برِجلين؟ قال [الفارس]: أعيش برِجل واحدة، قال [الطبيب]: أحضروا لي

فارسا قويا وفأسا قاطعة، فحضر الفارس والفأس، وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة، اقطعها، فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت، [ثم] ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات الرجل في ساعته. وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها، أحلقوا شعرها، فحلقوه، وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل، فزاد بها النشاف، فقال [(أي الطبيب)]: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ الموسى وشق رأسها صليبا وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها، فقلت لهم [هل] بقي لكم إلي حاجة؟ قالوا: لا، فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه". (راجع: هونكه (زيغريد)، شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيوض وكمال دسوقي، ط 2، Lewis (Bernard), بيروت، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، 1969، ص 215 ـ 216 ؛ Comment l' Islam a découvert l'Europe, tr. de l'Anglais par Annick Pélissier, Paris, La Découverte, 1984, pp 227 - 228 ; Oussedik (Nour), La médecine arabe du 7° au 13° siècle, thèse de Doctorat, un. d'Alger, 1984, p .